٢٨) عبد الرحمن حبنكة الميداني، الكيد الأحمر، دار الفكر، دمشق، بيروت، ط١.
٢٩) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار القلم الكويت، ط١٣، ١٤٠٢هـ١٩٨٢م.
٣٠) سعد عبد الفتاح عاشور، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية،١٩٦٣م.
٣١) محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة بيروت، ١٩٨٨م.
٣٢) سعد ماهر حزة(الدكتور)، المقدمة في اقتصاديات التبعية والتنمية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٧م.
٣٣) أحمد العوايشة، موقف الإسلام من نظرية ماركس للتفسير المادي للتاريخ،دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع،١٩٨٢م
٣٤) الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط٢-١٤٠٩هـ١٩٨٩م.
٣٥) سيد قطب، هذا الدين، دار الشروق، بيروت القاهرة، ١٩٨٢م.
٣٦) رتشارد كتشام، هذه هي الشيوعية، ترجمة: عزت فهيم، دار الكتب المصرة، شارع القصر العيني، ط٣.
٣٧) البيان،(مجلة)، السنة الثالثة والعشرون، العدد(٢٥٣)، رمضان١٤٢٩هـ سبتمبر٢٠٠٨م.

المنصور بن أبي عامر المعافري ودوره في بلاد الأندلس
٣٢٨هـ – ٣٩٢هـ

د.سالم حسين عبد الخضر المرشدي
أستاذ مشارك
كلية الآداب – جامعة الحديدة

المقدمة :

بعد وفاة الخليفة الأموي الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) بويع ابنه هشام بالخلافة من بعده ولقب بالمؤيد وكان صغيرا لم يبلغ الحلم في حينها لذلك اعتمد على كفيله منذ عهد والده محمد بن أبي عامر المعافري الذي لقب بالمنصور فيما بعد في تدبير شؤون الأندلس فاستعد لها المنصور بن أبي عامر منذ البدء حاكما ومجاهدا حتى أصبح الأندلس في عهده قويا ومتماسكا بفضل قيادته الحكيمة وشجاعته المتميزة بخاصة بعد أن تخلص من المنافسين والمعارضين لحكمه وفي مقدمتهم حاجب الخليفة (رئيس الوزراء) جعفر بن عثمان المصحفي المنافس الأول الذي وقف أمام تسنمه السلطة العليا في الدولة ولكن المنصور بن أبي عامر استطاع إزاحته وحل مكانه ثم أقدم على خطوة أخرى غير مشهودة من قبل إذ حجر الخليفة هشام المؤيد نفسه مع والدته السيدة صبح النافارية في قصرهما الخلافي ثم جرّد الخليفة من جميع صلاحياته بعد ان اكتشف ضعف قدرته الذاتية وخضوعه لأفكار والدته ثم استمر المنصور بن أبي عامر في إكمال تصفية المعارضين له فاشتبك مع صهره غالب بن عبد الرحمن قائد الجيش حتى أوقع به ،وبذلك صفا الجو للمنصور بن أبي عامر وأصبح الرجل الاول في الدولة دون منافس فوضع أمور الدولة بيده وقام بها على أحسن وجه بسبب كفاءته وقدرته غير المحدودة وقد اشتهر المنصور بن أبي عامر بحملاته العسكرية الجهادية ضد الممالك الاسبانية التي بلغت أكثر من خمسين حملة عسكرية على امتداد فترة حكمه وأصبح عهده جهاديا إذ فتح المدن والحصون التابعة للممالك الاسبانية وحتى النائية منها والتي لم تطأها أقدام المسلمين من قبل ، وتعرّض ملوك الأسبان في عهده إلى ضغوط سياسية وعسكرية لم يشهدوا مثلها سابقا إذ أجبروا على التنازل عن الحكم أو التنقل بين المدن المختلفة بخاصة بعد اشتداد المعارك ومع ذلك فلم يسلموا من الأسر أو القتل أو دفع الجزية للمسلمين فضلا عن ذلك فان المسلمين حصلوا على غنائم هائلة في فتوحاتهم الإسلامية ومعاركهم ضد الممالك الاسبانية في عهده .

أما بلاد المغرب فقد امتد فيها النفوذ الأندلسي في عهد المنصور بن أبي عامر إذ سيطر على بلاد المغربين الأقصى والأوسط وانحسر في عهده نفوذ الدولة الفاطمية في بلاد المغرب إلى درجة كبيرة ، ومما هو جدير بالذكر إن الحملات العسكرية وكثرة المعارك لم تمنعه من القيام بالإصلاحات الداخلية التي تمثلت في تنظيم الجيش وإعداده وبناء مدينة الزاهرة على غرار مدينة الزهراء التي بنيت في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) فضلا عن بناء الجوامع وتشييد الجسور والقناطر ومتابعة مجالس العلماء والأدباء ومناظراتهم الفكرية وتكريمهم وتشجيعهم على البحث

والتأليف ولم ينقطع عن مجالسهم حتى في حملاته العسكرية إذ كان يصطحبهم معه ويستشيرهم في أمور دولته. ومن هنا تتجلى أهمية البحث إذ سلط الضوء على مرحلة مشرقة في تاريخ الأندلس تعتز بها الأجيال العربية الإسلامية عبر التاريخ فهي مرحلة حضارية ارتقت فيها بلاد الأندلس إلى أعلى مراحل السمو والتقدم في نواحي الحياة كافة .

وقد اعتمد البحث على مصادر ومراجع مهمة منها : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لمؤلفه ابن بسّام الشنتريني(ت ٥٤٢هـ) الذي رفد البحث بمعلومات وافرة عن مجالس العلماء والأدباء ومناضراتهم الفكرية التي حظيت باحترام وتقدير المنصور بن أبي عامر ، وكتاب البيان المغرب في تاريخ وحلى المغرب لمؤلفه ابن عذارى المراكشي (كان حيا سنة ٧١٢هـ) الذي أغنى البحث في توضيح حوادث بلاد المغرب والأندلس على امتداد فترة البحث ، وكتابي أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام والإحاطة في أخبار غرناطة لمؤلفهما لسان الدين بن الخطيب ت(٧٧٦هـ) اللذان اغنيا البحث بالمعلومات عن شخصية المنصور بن ابي عامر، فضلا عن أحداث حملاته العسكرية في بلاد المغرب والأندلس ، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر لمؤلفه العلامة ابن خلدون ت ٨٠٨هـ الذي زوّد البحث بمعلومات مهمة عن أحداث بلاد المغرب بخاصة ما يتعلق منها بقبائل صنهاجه وقبائل زناته . أما المراجع التي استفاد منها البحث فنذكر منها كتاب دولة الإسلام في الأندلس لمؤلفه محمد عبد الله عنان الذي عزّز معلومات البحث بتوضيح اسباب ونتائج الحملات العسكرية الجهادية للمنصور بن أبي عامر ، وكتاب في التاريخ العباسي والأندلسي لمؤلفه أحمد مختار العبادي الذي استفاد منه البحث في بيان الأخطار المغربية التي واجهت المنصور بن أبي عامر . ومن كتب المستشرقين التي استفاد منها البحث نذكر كتاب تاريخ اسبانيا المسلمة لمؤلفه ليفي بروفنسال إذ رفد البحث بمعلومات مهمة عن الحملات العسكرية التي جهزها المنصور بن أبي عامر ضد الممالك الاسبانية .

نسبه وشخصيته:

هو :محمد بن عبد الله بن أبي عامر بن محمد بن أبي الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري ، الملقب بالمنصور ، دخل جدّه عبد الملك لأول مرة مع القائد طارق بن زياد في فتح اسبانيا سنة ٩٢هـ ، وكان له دور مؤثر في عملية الفتح (١) ، وقد استوطن عبد الملك مع قومه في الجزيرة الخضراء ثم ارتحلوا فيما بعد إلى قرطبة عاصمة الخلافة الأموية في بلاد الأندلس (٢). وفيها نشأ المنصور بن أبي عامر وقد افتخر بدور أجداده في بلاد الأندلس قائلا (٣):

ما شدت بنيانا ولكن زيادة على ما بنى عبد المليك وعامر

رفعنا العوالي بالعوالي سياسة وأورثناها في القديم معافر

ينتسب المنصور بن أبي عامر إلى قبيلة معافر الحميرية اليمنية وتنتسب والدته إلى قبيلة بني تميم وقد أشار الشاعر الأندلسي احمد بن دراج إلى أصالة نسبه من جهة الأبوين بقوله(٤) :

تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلألأ في العلى وبدور

من الحميريين الذين أكفهم سحائب تهمى بالنّدى وبحور

وكان المنصور بن أبي عامر منذ نشأته الأولى متميزا بين إفراد أسرته وقد قال عنه ابن عذارى ((كان محمد هذا حسن النشأة ظاهر النجابة ، تتفرس فيه السيادة)) (٥) وظهرت علامات الطموح السياسي واضحة في شخصيته منذ حداثة عمره إذ كان يتوقع لنفسه مستقبلا زاهرا ويشير إلى ذلك صراحة أمام أقرانه والمقرّبين إليه من ذلك قوله : ((إني لابد أن أملك الأندلس ، وأقود العساكر ، وينفذ حكمي في جميع الأندلس)) (٦) . وامتاز المنصور برجاحة عقله وصواب رأيه فضلا عن شجاعته (٧) وقد غالى المؤرخ الأندلسي لسان الدين بن الخطيب بشخصية المنصور بن أبي عامر وقدراته فجعله في أعلى المراتب بقوله : ((كان هذا الرجل بكر الدهر وفايدة الأيام ،وبيضة العمر.)) (٨) . من ذلك يمكن القول بان المنصور بن أبي عامر نشأ في بيت عريق وتلقى تربية دينية واجتماعية جعلته مؤهلا لكي يؤدي دورا حضاريا كبيرا ويسجل مرحلة تاريخية مشرقة لم تشهدها بلاد الأندلس من قبل .

المناصب التي تقلدّها :

بدأ المنصور بن أبي عامر حياته السياسية بأن تقرب للخليفة الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ) آملا في الحصول على حظوة عنده ، وقد تم له ما أراد ، إذ طلبت منه السيدة صبح(٩) زوجة الخليفة الحكم المستنصر بان يكتب عنها ، فأعجبها تدبيره للأمور ثم أخبرت الخليفة بمواصفاته فعينه على خدمتها وخدمة ولدها عبد الرحمن ، وصرف له راتبا شهريا جراء ذلك ، ثم لفت انتباه الخليفة الحكم المستنصر حسنُ أدائه فعينه على خزانة الدولة والسكة ثم أضاف إليه خطة المواريث ومنها ارتقى الى خطة القضاء في مدينة أشبيلية وأعمالها وذلك سنة ٣٥٨هـ ، وقد أوكل اليه اعمال ولده هشام سنة ٣٥٩هـ بعد وفاة ولده الأول عبد الرحمن ، واستمر المنصور بن ابي عامر يتدرج في المناصب الإدارية حتى ولاه الحكم المستنصر على الشرطة الوسطى سنة ٣٦١هـ ثم عينه قاضي القضاة في العدوة المغربية وابلغ القادة العسكريين في بلاد المغرب باستشارته وعدم تنفيذ أمر دونه(١٠) ،كل ذلك بدعم من السيدة صبح لأن المنصور بن ابي عامر استمالها بحسن ادائه وإدارته للمناصب التي تقلدها ، وقد وثّق المنصور بن ابي عامر علاقته مع السيدة صبح فعزّز ذلك بالهدايا الثمينة التي قدّمها لها ، حتى انه عمل قصرا من فضة لم يشهد احد مثله في بلاد الأندلس وحمله اليها بمرأى من اهل قرطبة ورجال الدولة (١١). وكان المنصور بن ابي عامر يهدف الى تعميق علاقته مع القصر الخلافي من اجل ان يساعده ذلك على تحقيق أهدافه السياسية وطموحه الشديد بالحصول على المناصب العليا في الدولة ، وليس هدفه التمتع بالحب والغرام كما يذكر بعض المؤرخين الذين طعنوا بعلاقته مع السيدة صبح ، ويبدو ان هؤلاء المؤرخين يفسرون الاحداث التاريخية من زاوية ضيقة اذ ان العلاقة التي تكونت بين المنصور بن ابي عامر والسيدة صبح كانت بدوافع سياسية فان السيدة صبح كانت تطمح بالسيطرة على امور الدولة لحين تمكن ولدها الصغير هشام لذلك فأنها بحاجة الى شخصية سياسية قوية تعتمد عليها في تدبير امور دولتها فوجدت في شخصية المنصور بن ابي عامر ما يحقق طموحها ، أما المنصور بن ابي عامر فأراد أن يستغل هذه العلاقة بالوصول الى المنصب الذي يؤهله للسيطرة على نظام الحكم وبذلك استمر كل طرف منهما يوثق علاقته بالآخر بخاصة بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر ومما يؤيد هذا الرأي إن المذكورين عندما وصلا الى مرحلة تناقضت فيها مصالحهما السياسية افترق كل منهما عن الآخر وراح يفكر بالخلاص منه ،بخاصة بعد أن انتقل المنصور الى مدينته الزاهرة وحجر الخليفة هشام المؤيد في قصره في المرحلة اللاحقة (١٢) .

سياسة المنصور الداخلية :

سخّر المنصور بن أبي عامر كل ما في وسعه من اجل أن يكون الرجل الأول في الدولة وقد تحقق له ذلك بعد جهد كبير حيث وضع العناصر المنافسة له في خارطة طريقه إلى الحكم وبدأ بتصفيتهم واحدا بعد الآخر معتمدا على علاقته بالخليفة هشام المؤيد وأمه السيدة صبح فضلا عن قدرته الشخصية ورجاحة عقله ودهائه إذ وجه بعضهم على بعض ، وقد علق المؤرخ ابن خلدون على سياسة المنصور بن ابي عامر التصفوية بقوله :((تجرّد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحطّهم عن مراتبهم وقتل بعضها ببعض كل ذلك عن أمر هشام وخطّه وتوقيعه حتى استأصل بهم وفرق جموعهم)) (١٣) وكان الهدف الأول الذي تخلص منه هو المغيرة بن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي (٣٥٠-٣٦٦هـ) .

مقتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر :

هو عم الخليفة هشام المؤيد وكان على صلة وثيقة بالصقالبة(١٤) ،حراس القصر الخلافي: لذلك أصروا على ترشيحه للخلافة بعد أخيه الحكم المستنصر لأن هشام المؤيد كان صغيرا في حينها ومن هنا فقد انقسم رجال الدولة إلى قسمين : القسم الأول يتزعمه الصقالبة المتنفذون في البلاط الأموي وفي مقدمتهم فائق وجؤذر يطالبون بالمغيرة بن عبد الرحمن خليفة لأنهم وجدوا فيه شخصية مؤثرة قادرا على حمايتهم واستمرارهم في القصر ، أما القسم الثاني المتمثل في كبار رجال الدولة وفي مقدمتهم جعفر بن عثمان المصحفي والمنصور بن أبي عامر فإنهم مصرون على تولية هشام بعد أبيه الحكم المستنصر باعتباره وليا للعهد ويمتلك الصفة الشرعية على الرغم من صغر سنه ولكنهم في الحقيقة يفضلونه لأنه سوف يوكل إليهم تدبير أمور الدولة وكان أكثرهم تحمسا لهذا الأمر كفيله منذ عهد أبيه المنصور بن أبي عامر صاحب الكفاءة والعلاقة المتميزة مع القصر(١٥) ،لذلك فان جعفر بن عثمان المصحفي وجه الدعوة لكبار رجال الدولة وعقد اجتماعا مغلقا للبت في موضوع الخلافة بعد أن ابلغه الصقالبة بوفاة الخليفة الحكم المستنصر، ورغبتهم في ترشيح المغيرة بن عبد الرحمن من بعده ، فاتفق المجتمعون على شرعية هشام المؤيد وتطوّع المنصور بن أبي عامر لقتل المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بالاتفاق مع جعفر بن عثمان المصحفي الذي زوده بالرجال القادرين على تنفيذ المهمة ، وقد نجح المنصور بن أبي عامر في ذلك ثم أشاع بين الناس بان المغيرة بن عبد الرحمن انتحر بسبب حقده على قيام هشام المؤيد بأمر الدولة(١٦). وبذلك تخلص المنصور بن أبي عامر من الهدف الأول بموافقة كبار رجال الدولة . ثم استثمر عمله هذا بدعوة الناس لمبايعة هشام بن الخليفة الحكم المستنصر في ٤صفر سنة ٣٦٦هـ إذ أصبح خليفة المسلمين بعد أبيه الحكم المستنصر ولقب بالمؤيد واصدر الخليفة هشام

المؤيد أمره بحجابة جعفر بن عثمان المصحفي وتولية المنصور بن أبي عامر خطة الوزارة وجعله شريكا للحاجب في تدبير أمور الدولة ،مكافأة لهما على قيامهما وتنفيذهما العهد بتوليته منصب الخلافة (١٧) .

مواجهة الصقالبة :

كان الصقالبة أصحاب الكلمة النافذة في القصر الخلافي، لذلك أراد المنصور بن أبي عامر أن يخترق صفوفهم ويفرقهم مستغلا موقفهم السلبي من مبايعة الخليفة هشام المؤيد واستحواذهم على أموال الدولة لذلك فقد رسم خطة محكمة للإطاحة بهم إذ استمال بعضهم وابعد البعض الآخر وقتل المعارضين منهم (١٨) وقد استثمر هذا الإجراء بأن أصبح له نفوذ واسع في الجيش بعد أن استبدل الصقالبة حراس القصر بعناصر جديدة من البربر وغيرهم وشكل جيش الحضرة تحت إمرته واختار بعضهم في حمايته الخاصة وأطلق عليهم اسم ((الفتيان العامرية)) (١٩) .

الإطاحة بالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي :

تعرضت بلاد الأندلس إلى هجوم أسباني مفاجيء بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦هـ يهدف بالدرجة الأولى لمعرفة قوة المسلمين واستعدادهم للقتال بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر ، فاستعد المنصور بن أبي عامر من حينه وقاد جيشه ردا على هذا الهجوم وحقق الانتصار على الجيش الاسباني (٢٠)؛ وقد أثار هذا الحادث خلافا سياسيا بين الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وقائد الجيش غالب بن عبد الرحمن فاتهم كلّ منهما الطرف الآخر بالتخاذل في مواجهة العدو الاسباني ، لذلك استغل المنصور بن أبي عامر هذا الخلاف على أحسن وجه إذ تقرّب من القائد غالب بن عبد الرحمن من اجل الإطاحة بالحاجب جعفر بن عثمان المصحفي المنافس الأول له اذ أقنع الخليفة هشام المؤيد بصواب موقف القائد غالب بن عبد الرحمن بسبب انشغاله بحماية الثغور الأندلسية فاصدر له امرا خلافيا اصبح القائد غالب بن عبد الرحمن بموجبه صاحب الوزارتين (٢١)، لذلك استهوى هذا الأمر القائد غالب بن عبد الرحمن الذي قام بدوره باقناع الخليفة هشام المؤيد بان يصدر امرا خلافيا جعل فيه المنصور بن ابي عامر على العاصمة قرطبة بدلا من محمد بن جعفر بن عثمان المصحفي مكافأة له على قيادة الجيش وتحقيق الانتصار على العدو الاسباني (٢٢) . ومن هنا بدأ نجم الحاجب جعفر المصحفي بالتراجع اذ أصبح بعيدا عن السلطة وتحت رحمة شخصيتين مؤثرتين في الدولة الأموية لذلك حاول ان يستدرك الأمر ويستميل القائد غالب بن عبد الرحمن بان يصبح صهره ويزوج ولده من ابنة القائد غالب بن عبد الرحمن المدعوة أسماء وكاد الحاجب ان ينجح في هذا الأمر لولا ان المنصور بن ابي عامر قطع عليه الطريق ، اذ

عرض نفسه على القائد غالب بن عبد الرحمن واقنعه بان يكون هو صهره ويتزوج ابنته أسماء وقد اقترن طلبه هذا برغبة أهل القصر فاستدار غالب الى جهة المنصور ورفض طلب الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي (٢٣) ، وبذلك أصبح هذا الأخير من دون مساعد ولم يبق له في الدولة سوى الاسم بخاصة بعد ان صدر امر الخليفة هشام المؤيد بتعيين القائد غالب بن عبد الرحمن شريكا لجعفر بن عثمان المصحفي في الحجابة (٢٤)، ثم ألحقه بأمر جديد تضمن عزل جعفر بن عثمان من منصب الحجابة سنة ٣٦٧هـ وأمر بسجنه في مطبق الزهراء وملاحقة ابنائه ومصادرة أموالهم تحت ذريعة استحواذهم على أموال الدولة واستغلالها لمصالحهم الشخصية (٢٥) ، وقد وصف جعفر بن عثمان المصحفي نكبته بهذه الأبيات الشعرية فقال: (٢٦)

لا تأمنن من الزمـان تقلباً إن الزمـــان بأهلـــه يتقلبُ

ولقد أراني والليوث تخافني وأخافني من بعد ذاك الثعلبُ

ثم تراجع جعفر بن عثمان المصحفي بعد ان ضعف موقفه ، فناشد المنصور بن أبي عامر طالبا عفوه قائلا: (٢٧)

هبني أسأتُ فأين الفضلُ والكرمُ إذ قادني نحوك الإذعان والندمُ

إن إذعان المصحفي بهذا الشكل لم يغير من موقف المنصور بن أبي عامر بل زاده تشددا بسبب قناعته بالإجراء الذي اوقع بالحاجب جعفر المصحفي ، لذلك فلم يدع له بصيصا من الامل بالعودة الى الحياة الطبيعية وأجابه قائلا : (٢٨)

فايأس من العيش اذ قد صرت في طبق تبغي التكرّم لما فاتك الكرم

نفســـي اذا حجمت ليســت براجــعة ولو تشفع فيك العرب والعجم

لذلك فقد بقي المصحفي في سجنه يعاني من الألم والحزن والمهانة حتى وافته المنية سنة ٣٧٢هـ (٢٩). وهكذا تخلص المنصور بن ابي عامر من اخطر المنافسين له وانفتحت أمامه باب القصر على مصراعيها وصار صاحب الحل والعقد دون منافس.

حجر الخليفة هشام المؤيد :

بعد عزل الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وأفول نجمه ، تقلد المنصور بن ابي عامر منصب الحجابه بدلا عنه ثم أقدم على اجراء غير مسبوق إذ وضع الخليفة هشام المؤيد تحت الإقامة الجبرية في قصره ومنع الناس من زيارته ، وحتى الوزراء لا يستطيعون مواجهته إلا في حالات نادرة ولغرض أداء التحية (٣٠). وانتزع من الخليفة

كل صلاحياته ما عدا الاسم الخلافي (٣١). وفي خطوة لاحقة وتحديدا سنة ٣٧١هـ لُقب بـ ((المنصور بالله)) على طريقة الخلفاء الأمويين، وأمر أن يذكر هذا اللقب على منابر الأندلس وينقش اسمه على النقود والطرز وبدأ الوزراء وكبار رجال بني أمية يقبلون يده وبذلك تساوى مع الخليفة في الامتيازات العامة والخاصة (٣٢) . واتخذ المنصور كل التدابير لتنفيذ إجراءاته وحتى في سفره فانه يوكل من يثق به لمتابعة قصر الخليفة وتشخيص الداخلين والخارجين (٣٣). وقد لخّص ابن عذارى عملية حجر الخليفة هشام المؤيد في قطعة نثرية رائعة منها قوله : ((وتمّ لمحمد بن أبي عامر ما أراد وانتظم بلبّة أمانيه المراد وعطّل قصر الخليفة من جميعه ، وصيّره بمعزل من سامعه ومطيعه ، وسدُّ باب قصره عليه ، وجدّ في خبر ألا يصل اليه ، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر ويبسط فيه النهي والأمر ويشرف منه على كل داخل ، ويمنع ما يحذره من الدواخل ...))(٣٤) .

ويبدو أن هنالك أسباباً متعددة كانت وراء حجر الخليفة هشام المؤيد منها : ضعف شخصيته وقدرته الذاتية التي كانت غير منسجمة مع مهمات المرحلة التي مرت بها بلاد الأندلس ، إذ تكالبت الممالك الاسبانية بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر فضلا عن الاشتباكات المستمرة بين أهل الأندلس وأهل المغرب ، وقد أوجز لسان الدين ابن الخطيب صفات الخليفة هشام المؤيد بقوله: ((ولما كان هشام مندرجا في طي كافله الحاجب المنصور رحمه الله بحيث لا ينسب إليه تدبير ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، اذ كان في نفسه مراحل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ولعب الصبيان والبنات وفي الكبر بمجالسة النساء ، ومحادثة الإماء ، يحرصُ بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات ...)) (٣٥)

فضلاً عن ذلك فانه كان واقعا تحت تأثير والدته النافارية ، أما المنصور بن أبي عامر فكان طموحاً فضلا عن قدرته الذاتية وشخصيته المؤثرة وقد توافرت له الفرصة المناسبة لكي يختبر قدرته ويجسدها على ارض الواقع ، فأثمرت بشكل يثير الاعجاب وغالبا ما يكون الحكم على الأمور من خلال نتائجها المتحققة ، وقد اثبتت الأحداث صحة مواقف المنصور ودقتها ولم تظهر له أهداف مادية أو استغلالية بل كثيرا ما أشادت المصادر التاريخية بعدله وسخائه (٣٦) . أما قول بعض المستشرقين بأن المنصور بن ابي عامر كان دكتاتوراً ومستبداً (٣٧) فهو قول لا ينسجم مع الحقيقة والواقع فلو كان المنصور جشعا لما أحبّه الجند والتفوا حوله وحققوا تحت قيادته أروع الانتصارات في شمال الأندلس وجنوبها .

إن هذا الوضع السياسي جعل المنصور بن أبي عامر في حيرة من أمره فأما أن تضيع الأندلس وأما أن يتخذ إجراء بحق الخليفة هشام المؤيد ووالدته ، فاتبع الحل الثاني